حيوانات ضخمة ،و مفترسة ،و مثقفة

في يوم السبت الممل وعندما كنت أشاهد التلفاز، وأتابع أحدى القنوات الثقافية، وهي تعرض أبرز المواهب القتالية للحيوانات، ومقارنتها لقدرة البشر على تحمليها و مدى قدرتنا على فعلها. من هذا البرنامج بدى خيالي الواسع يشكل فكرة ،وقصة عن هذا العالم المجهول ماذا لو لغير البشر ثقافة ؟ هل لهم أجداد وسلالات يتوارثون ثقافتهم منها؟ أو هل لهم (شيخ القبيلة)يحكمهم ويقوم بتوجيههم ؟ ولكن يجب علي أولا تعرف الثقافة و ما هي أبرز معالم هذه الثقافة اللابشرية؟ و ما هي أهم الأدلة على وجودها؟

لمتابعة هذا النسج الخيالي ،ومعرفة خطأه من صوابه لابد من التعرف على مفهوم الثقافة. عرف إدوارد تايلور الثقافة في كتابه "الثقافة البدائية "،على أنها "ذلك الكل الديناميكي الذي يشتمل على المعارف والفنون والمعتقدات والقوانين و الاخلاق والفلسفة و الأديان والعادات التي اكتسبها الانسان من مجتمعه بوصفه عضوا فيه" (تايلور)كما أكد جامس ميكي على هذا التعريف كونه يندرج تحت نقطتين أساسيتين هما ،أن كل فرد يكتسب ثقافة بوصفه عضوا في مجتمعه، و الاخرى أن الثقافة مادية ومعنوية ،مادية يمكن قياسها كاللغة ،والفنون . (البلوي، 2014)

في هذا التعريف اشترط تايلور وميكي أن الثقافة لابد أن تكون أفراد يتشاركونها ويكونون مجتمع ،وأن يتفاعل هذا المجتمع باللغة ،و يكون لهم ثقافة تبرز مجتمعهم.

"لاحظ جيرالد ويس Gerald Weiss أنه على الرغم من تعريف تايلور التقليدى لكلمة ثقافة يقتصر على البشر بعينهم، فإن العديد من علماء الأنثربولوجيا قد اتخذوا من هذا أمرا مفروغا منه، وبالتالي عملوا على حذف هذا الشرط الهام من المفاهيم اللاحقة،، مجرد ثقافة المساواة مع أي سلوك مكتسب. يعد هذا الزلل مشكلة لأنه خلال السنوات التكوينية لعلم الحيوانات الراقية المعاصر، قد تلقى بعض علماء الحيوانات الراقية تدريبا في علم الأنثروبولوجيا (وبالطبع هم على دراية بأن مفهوم كلمة ثقافة يشير إلى تعلم السلوك بين البشر)، وبعضها الآخر ليس كذلك. وقد لاحظ بعض العلماء من غير الأنثربولوجيين، مثل روبرت يركس Robert Yerkes وجين غودال Jane Goodallأنه طالما أن حيوان الشمبانزي قد تعلم بعض السلوكيات، فبالتالى فلديهم قدر من ثقافة."(يركس ،١٩٤٣) .

وعلى هذا النحو انقسم العلماء بين مؤيد ومعارض لثقافة غير البشر ،بالنسبة للمؤيدين بنو هذا المعتقد على رأي ماكجرو حيث يقول فيه أن الثقافة إذا بنيت على وجود المعرفة سوف تنحصر محاولات العلماء لدراسة ثقافة تلك الحيوانات على نطاق ضيق للغاية. وبناء عليه ،بدلا من تعريف الثقافة في ضوء المعرفة يرى ماكجرو بأنه يمكننا النظر إلى الثقافة باعتبارها منظومة وقد أوضح ستة خطوات لتلك المنظومة :

- اكتساب سلوك جديد او على الاقل تعديل لسلوك كان موجودا مسبقا.
- نقل هذا السلوك الى الغير.
- يتسم السلوك الجديد بالترابط بين الكائنات المكتسبة له بعضهم البعض.
- الاستمرارية في اكتساب السلوك أطول فترة ممكنة بعد فترة الاستجابة.
- انتشار هذا السلوك على شكل وحدات اجتماعية.
- استمرار هذا السلوك عبر عدة أجيال . (مكجرو ،١٩٩٨)

إذا فعليه يجب القول بأن الحيوانات لها ثقافة بالنسبة لماكجرو الذي بنا الثقافة على المنظومة ،وليس المعرفة فالحيوانات مثقفة على حد قوله .

ولكن لابد من طرح سؤال ما معالم هذه الثقافة ؟من واقع قراءتي عن هذا الموضوع كان لابد من البدء بإنسان الغاب وهو القرد أو الشمبانزى عندما نشاهد الشمبانزى وهو يستحم و يستخدم العصا للإشباع نفسه من النمل الأبيض، فهو في كلا الفعلين قد يكون مقلدا، أو مبتكرا وأعني بها أنه شاهد وقلد وهذا لا يمكن لأن استحمامه ليس مربوطا بالمشاهدة فهو أمر فطري (مكتسب) ،وليس متعلما و كذلك بالنسبة لحجر النمل وطريقة استعمال العصا ليست فكرة وليدة لحظة .

أنتقل للأعجوبة من عجائب الله في خلقه ،وهو النمل، من أول وهلة تبادر إلى ذهني سورة النمل التي هي سورة في كتاب الله ،هذا دليل على عظمة الخالق حيث وضع للنمل سورة في كتابه، أما من الناحية العلمية فللنمل ملكة ،وللنمل مستوطنة يسكنها النمل ،ويتكاثر بفعل التزاوج بين الملكة ،و عدد من الذكور لكون هذا المنظومة المتوارثة وهذا الامر لم يخلق من عام او عامين بل هو منذ اكثر من ١٤٠٠ سنه ان لم يكن اقدم. وانتقل إلى قول الله تعالى(حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِي اوجنوده. قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُون) سورة النمل. هذا دليل أخر على فهم النمل للخطر القادم من سليمان عليه السلام وجنوده . وبينما أنا على أهبة الاستعداد للذهاب للجامعة وإذ بهذه الآية ترن في جهاز الراديو لتفند صفة مشتركة بين النمل والإنسان ، وهي التسامح ففي الآية الكريمة ذكر (وَهُمْ لَا يَشْعُرُون) سورة النمل . دلت على أن النمل أعطى العذر لسليمان علية السلام ، وأن كانت هذه صفة ، وخلق يجب تعلمه ولو كان من حشرة.

انتقل إلى فكرة قرأتها في مقالة الاستاذة بدرية العبيد حيث تقول فيها: كيف أن الحيوانات لا تهجم على الفرائس إلا إذا إنتابها الجوع ،لذلك فهي محافظة على لياقتها ورشاقتها ،وهذا أشبه بحالنا فنحن لا نأكل إلا إذا شعرنا بالجوع ، وغير ذلك فوحش السمنة سوف يلاحقنا كذلك الحيوانات . (العبيد ،٢٠٠٩)

أما بالنسبة للذكر المهيمن في قبيلته فهو وجه شبه اخر بين البشر والحيوانات ، فنحن لدينا (شيخ القبيلة) أو(الحاكم) والحيوان (الذكر المهيمن) فكلاهما يرأس مجموعته ،ويسير امروهم ،وبالإضافة على ذلك يكون له اجمل السيدات او الحيوانات (الإناث) ،وأن كنت اتمنى ألا يقرأ هذين السطرين غيري ولكن هذه فكره يجب طرحها.

نجد الاختلاف الثقافي بيننا متداول و قد يصل إلى اختلاف معيشي (طريقة العيش من نوع الأكل وكيفيته)، فنحن في الرياض تجتمع العائلة على مائدة واحده تبدأ بالكل وتنتهي بهم ،ولكن في كثير من القرى يجب على رب العائلة البدء ومن ثم يأتي افراد العائلة لتكملة (الفظلة) ، كذلك الحيوانات لها طرق وكيفيات فيما بينهم ،فالبعض يأكل على شكل جماعات والبعض الاخر يأخذ فظلة الكبير .

كل الأمثلة هي من نسج قراءة و إستطلاع ، ولكن لابد من وجود أدلة على هذه الأمثلة،دعونا نستخدم خطوات ماكجرو ونرى مدى صحتها.

الأولى،يقول فيها سلوك جديد أو تعديله .دعونا نناقش أبرز ما قرأت عن السلوك في الحيوانات، نظري،لقدرة على معرفة الأماكن، والأخرى إيجاد الحلول للمشكلات بطريقة مبتكرة.

ففي الأولى،هي قدرة الحيوانات على معرفة الأماكن. كان لأحد أقربائي قطة بيضاء لا يزال شكلها جميل في نظري ،في أحد الأيام خرجت ولم تعد إلا في اليوم الثاني كيف تمكنت من معرفة البيت؟ كان هذا لغز يصعب حله ،ولكن كان جوابه بين أوساط العائلة(ساكنها جني)ولكن بعد الآن هذا دليل على أنها تملك ثقافة.

وفي الاخرى ،انّ تجد حلول لمشكلاتها.عندما يكون الحيوان فرد من مجموعة من الأفراد أكلها متشارك ونومها متشارك ، وهو ما يسمى بالقطيع،فهي تحمي نفسها من العدو ،وبهذا فهي وجدت الحل لأكبر مشكلة،وهي الإفتراس من الحيوانات الأكبر فهي تطبيق في الإتحاد في القوة.

أما النقطة الثانية،يجب نقل السلوك للغير فكل أم و أب يجب عليه نقل هذا السلوك لأولاده ،أبرز أ،واع هذا السلوك هو تعليم طرية الأكل ،وكيفيه صيد الفريسة فهذا سلوك متوارث.

النقطة الثالثة، نرى هذا السلوك يربط الحيوانات بعضهم ببعض، فنرى هذا التجمع يجمع بينهم ويكون ميزه تميزهم.

النقطة الرابعة ،فيجب على هذا السلوك الإنتقال للغير فقانون بالإتحاد القوة قانون عرف منذ زمن وليس لأول مره نرى الحيوانات مجتمعه لتفادي أي مشكله تواجهها.

الحيوانات تتفاهم مع غيرها بلغة تميزها عن غيرها،وهذا السلوك يتمثل على شكل جماعات وليس أفراد وهذه هي النقطة الخامسة.

وفي النقطة السادسة،الإستمرار عبر الاجيال نرى أنواع متعددة من السلوك متوارثة عبر الأجيال مثاله :طريقة الأكل ،وطريقة التزاوج وغيرها.

وبعد هذا،فللحيوانات ثقافة على حسب قول ماكجرو،نعم الحيوان مثقف لما لا ،ولكن وأنا في صدد كتابة هذه المقالة سألت أبي هل تؤمن بأن لغير البشر تقافة ؟في البداية استغرب الأمر ،ولكن أجاب بالنفي بقوله:الحيوان لايعقل،ولكن أتت أمي بالتردد في المرة الأولى –وبعد إعادة السؤال الغريب- إجابة بالنفي ولكن بعد ذلك استدركت قائله:نعم لها ثقافة ودللت بآية النمل .

بالنسبة لي،إقتنعت بأن الحيوانات مثقفة ،ليس فقط للأدلة المطروحة أعلاه ولكن فهي من وجهة نظري فهي ذكية بما فيه الكفاية لتتكيف مع كل مكان تسكن فيه،ولأي تقلبات جوية تواجهها بينما نرى الإنسان يصعب علية معرفة موقع طائرة ،فلو كانت في البحر لعرفت الأسماك قبلنا ،ولو كانت على سطح أرض لرآها طائر قبلنا ،ولكن أرى بعض المعارضين وبشدة هذا الموضوع لا يتقبلون فكرة وجود ثقافة غير بشرية ، هل هي نوع من الأنانية لأنه يزاحم عالمنا غيرنا ، أم هي صورة بعيدة عن الحقيقة ،وهي مجرد أفكار وخيالات لا يقول بها إلا أصحاب العقول الحالمة فأنا ومن يؤمنون بثقافة الحيوانات ،بالنسبة لهم مجرد عقول لا تجد ما يشغلها ،ولكن بالفعل هو أمرٌ عندما تسمعه للمرة الأولى تتعجب لأن هذه الفكرة ليست متداولة ،ولكن دعني أطرح عليك بعض الأسئلة هي من غيرت نظرتي عن هذه الكائنات هل تعلم منذ متى وجدت الحيوانات ؟ هل نحن أطول عمراً أم هذه الحيوانات ؟ من يستطيع الإستمرار نحن أم هم ؟ هل عقولنا قادرة على رد خطرهم ؟ ولا تنسى أن فوق كل ذي علماً عليم، فلا تستغرب من هذه الحقيقة فنحن سخرنا هذا الحيوان لأكلنا ، ولبسنا ، وترفيهنا ، ولكن في الغد لا نعلم من يسخر من ؟ ومن سيحارب من ؟ ومن الذي يستطيع مواجهة أخطار الأرض ، وعواصفها وتحدياتها .

الإحالة غير دقيقة ، لابد من أن يكون عنوان النص المقتبس منه مظللا بالبولد ، كما يجب أن تكون بيانات النشر في سطر مستقل ..
يرجى مراجعة الأخطاء الإملائية في الهمزات وتركيب العبارات ، وهي مظللة بالأحمر وربما يوجد غيرها، أتمنى مراجعة النص كاملا وقراءته من قبل شخص آخر ليكتشف وجود أي خلل تركيبي أو إملائي..
انتبهي للنواصب (ليس وكان وأخواتها) فهي ترفع اسمها وتنصب خبرها وكذلك إن وأخواتها تنصب اسمها وترفع خبرها

- روبرت يركس **الشمبانزي: مستعمرة المختبر .**
١٩٤٣، نيو هافن :مطبعة جامعة ييل.
- دابليو سى مكجرو" W.C **الثقافة في الرئيسيات من غير البشر؟ "الاستعراض السنوي للأنثروبولوجيا.**
. McGrew 1998
- سورة النمل **الآية** ١٨ .
- الدكتورناصر البلوي: تخوف **الشعوب الإسلامية من الثقافات الأخرى**
أخبار تبوك
(http://www.tabuk-news.com/new/index.php/news1193)
- بدرية العبيد ،**الحيوانات الفسقانة**.
05ديسمبر ٢٠٠٩
(/http://badriyah1978.wordpress.com)